

الدرس الثاني والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث التاسع والثلاثون

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما
استكروها عليه" حديث حسن رواه ابن ماجه والبيهقي وغيرهما
الشرح..

هذا الحديث العظيم في بيان سعة رحمة الله وعظيم فضله وجزيل منه على أمة الإسلام أمة
محمد عليه الصلاة والسلام ، وأن الله عز وجل أكرم نبيه ومصطفاه وخيرته من عباده صلوات الله وسلامه عليه بأن تجاوز له
عن أمته أي رفع الإثم عنهم في هذه الثلاثة المذكورة في الحديث ؛ وهي : الخطأ والنسيان وما
استكروها عليه .

وفيه كرم الله وفضله وسعة منته جل وعلا على هذه الأمة وفيه أيضاً فضيلة نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قوله "إن الله تجاوز لي" : هذا يدل على تفضيل النبي عليه الصلاة والسلام وتشريفه ومن الله سبحانه وتعالى
عليه بهذه المنة بأنه تجاوز له ؛ أي من أجله .

قوله "عن أمتي" : المراد بالأمة أي من استجابوا له صلى الله عليه وسلم ودخلوا في هذا الدين ؛ لأن الأمة
المضافة إليه عليه الصلاة والسلام تارة يراد بها أمة الدعوة ، وتارة يراد به أمة الإجابة .

وهذا الحديث المراد بالأمة أمة الإجابة أي الذين استجابوا للنبي عليه الصلاة والسلام ؛

فقوله "إن الله تجاوز لي عن أمتي" : أي عن الذين استجابوا لي ودخلوا في هذا الدين تجاوز لهم
عن الخطأ والنسيان وما استكروها عليه .

ومعنى تجاوز الله تبارك وتعالى للأمة عن هذه الأمور أي رفع عنهم الإثم ؛ فإذا وقع المسلم المستجيب لله ورسوله في أمرٍ عن طريق الخطأ أو عن طريق النسيان أو عن طريق الإكراه - أُجبر على ذلك وهو لا يرغب ولا يريد - فإن الإثم مرفوع عنه .
ورفع الإثم عن من أخطأ أو نسي هذا جاء في القرآن الكريم في أواخر سورة البقرة لقول الله تبارك وتعالى {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} وقد جاء في صحيح مسلم أن الله تبارك وتعالى قال " قد فعلت " أي يرفع عنا المؤاخذه والعقوبة فيما يقع منا من مخالفة نتيجة النسيان أو نتيجة الخطأ .

والخطأ : فعل الشيء عن غير قصد ، لا يكون فعله متعمداً أو قاصداً .
والنسيان : أن يكون ذاكراً للشيء فينساه عند الفعل .
فإذا وقعت المخالفة نتيجة الخطأ . عدم التعمد . أو نتيجة النسيان . عدم الذكر . فإن المؤاخذه مرفوعة ؛ بدليل الحديث وبدليل قوله سبحانه وتعالى .
وقوله "وما استكروها عليه " : أي ما أُجِّتُوا على فعله إكراهاً وإجبارةً وإرغاماً من غير اختيار ولا عن رغبة ؛ فأيضاً هذا أمرٌ تجاوز الله سبحانه وتعالى للأمة عنه . فمن فعل أمراً ولو كان كفراً بالله بالإكراه وأُلجى إلى ذلك فالإثم مرفوع .
وهذا المعنى أيضاً دلّ عليه القرآن في قوله تبارك وتعالى {إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان} أي مرفوع عنه الإثم والمؤاخذه إذا فعل ذلك مكرهاً ؛ فمن قال الكفر أو فعل الكفر أو فعل المعصية ملجئاً ومرغماً من غير رغبة ومن غير اختيار فالله سبحانه وتعالى لا يؤاخذ به ذلك ؛ وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى بهذه الأمة وسعة إحسانه جل وعلا عليهم بأن تجاوز عن الأمة الخطأ والنسيان وما استكروها عليه .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

أولاً : أُمَّةُ نَبِيِّنا مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم أُمَّتان: أُمَّةُ دعوة وأُمَّةُ إجابة، فأُمَّةُ الدعوة هم كُلُّ إنْسِيٍّ وَجَنِيٍّ من حين بعثته إلى قيام الساعة، وأُمَّةُ الإجابة هم الذين وفَّقهم الله للدخول في دينه الحنيف وصاروا من المسلمين، والمراد من الأُمَّة في هذا الحديث أُمَّةُ الإجابة، ومن أمثلة أُمَّةِ الدعوة قوله صلى الله عليه وسلم :

“ والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار ” [رواه مسلم]

الشرح..

قول النبي صلى الله عليه وسلم "إن الله تجاوز لي عن أمتي" الأمة المضافة إليه عليه الصلاة والسلام هي أمة الإجابة ، والإضافة تعني تفضيل هؤلاء وتشريفهم ومن الله سبحانه وتعالى عليهم بالاستجابة للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، والأمة المضافة إليه تارةً يراد بها أمة الإجابة وتارةً يراد بها أمة الدعوة ، وهذا يُفهم من خلال السياق ؛ في هذا الحديث المراد بالأمة هنا أمة الإجابة . ويأتي إطلاق الأمة في بضع الأحاديث ويراد بها أمة الدعوة ، وأمة الدعوة هم من بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام من الإنس والجن ؛ فيشمل اليهود والنصارى والمجوس وجميع الأديان وجميع الناس من جميع الأديان الموجودين بعد بعثته ؛ فدعوته موجهة للجميع {وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين} فهو رسول للجميع ، كلهم أمته بمعنى أن دعوته للجميع ؛ ومن ذلكم الحديث الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام "والذي نفسي بيدي ما يسمع بي يهودي ولا نصراني من هذه الأمة" فالمراد بقوله عليه الصلاة والسلام من هذه الأمة أي من أمة الدعوة الذين بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام .

فالشاهد أ الأمة تارةً يراد بها أمة الدعوة وتارةً يراد بها أمة الإجابة والمراد في أمته بهذا الحديث "إن الله تجاوز لي عن أمتي" أمة الإجابة

قال: [الخطأ: فعل الشيء من غير قصد، والنسيان: أن يكون ذاكرًا لشيء فينساه عند الفعل، والإكراه: الإلجاء على قول أو فعل، والإثم مرفوع في هذه الثلاثة؛ وقد جاءت الأدلة من كتاب الله عز وجل على رفع ذلك، قال الله عز وجل { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } ، قال الله: “ قد فعلت ” أخرجه مسلم ، وقال: { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ } ، وقال: { إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا } ، وأما ما أتلفه لغيره فهو مضمون، كالقتل خطأ تجب فيه الدية مع الكفارة، وإذا أكره على الزنا أو قتل معصوم فلا يجوز له ذلك؛ فلا يستبقي حياته بقتل غيره.

الشرح..

ذكر عليه الصلاة والسلام ثلاثة أمور تجاوز الله جل وعلا للأمة عنها : الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . وهنا تعريف لهذه الأمور الثلاثة :

الخطأ : فعل الشيء من غير قصد وعمد وإنما يكون وقع فيه عن طريق الخطأ ؛ مثل أن يقتل الإنسان غيره خطأ ؛ كأن يوجه نبله أو سهامه إلى صيد ثم يصيب إنساناً ما رآه ولا انتبه له ؛ فهذا قتل خطأ تجاوز الله سبحانه وتعالى عنه لأنه غير عامد . لكن الشيء الذي أتلغه عن طريق الخطأ يكون ضامناً . فالشيء الذي يتعلق بالآخرين يكون ضامناً ؛ ولهذا إذا قتل أحداً خطأ فإنه يضمن بدفع الدية لكن الإثم مرفوع عنه ، ويتناوله قول النبي ﷺ "إن الله تجاوز لي عن أمتي" .

قوله " والنسيان " : أن يكون ذاكراً للشيء عالماً به ؛ لكن وقت الفعل ينسى ؛ فهذا أيضاً مما تجاوز الله سبحانه وتعالى عن الأمة في فعله .

الأمر الثالث قال " وما استكروها عليه " : الإكراه الاجراء على قول أو فعل ؛ أي يجبر ويرغم على الفعل من غير اختيار ولا رغبة ؛ فهؤلاء كلهم تجاوز الله سبحانه وتعالى عنهم . وفي باب الإكراه ينبغي أن يلاحظ أن الإنسان إذا أُكْرِه على الاعتداء على مسلم أو مباشرة انتهاك عرض فلا يحل له ذلك ؛ يعني لا يستبقي حياته على سبيل حياة الآخرين أو الإضرار بالآخرين .

[ثانياً : مِمَّا يُسْتَفَادُ مِنَ الْحَدِيثِ :

أولاً : بيان سعة رحمة الله وفضله وإحسانه إلى عباده؛ حيث رفع عنهم الإثم في هذه الثلاثة. ثانياً : رفع المؤاخذه على الخطأ، فإن كان الخطأ في ترك واجب فَعَلَهُ، وإن كان في إتلاف حقٍّ لغيره ضمنه] .

الشرح..

فإن كان الخطأ في ترك واجب فَعَلَهُ، وإن كان في إتلاف حقٍّ لغيره ضمنه لكن الإثم في كل ذلك مرفوع ؛ لأن الله سبحانه وتعالى تجاوز ورفع المؤاخذه ؛ فلا يلحقه بذلك إثم .

..*

الحديث الأربعون

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: " أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو

عابر سبيل، وكان ابن عمر رضي الله تعالى عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك “ .

رواه البخاري

الشرح..

هذا الحديث حديث عظيم في باب الزهد في الدنيا وعدم الانشغال بها عن الآخرة ، وأن الإنسان لم يُخلق لهذه الدنيا وهو في هذه الدنيا بمثابة الغريب أو العابر سبيل ، وشأنه فيها كالمسافر الذي مرَّ بأرض ليست أرضه وبوطنٍ ليس وطنه ، فنزل به قليلاً ليقضي حاجته ويمضي أو لم ينزل وإنما مر مروراً ؛ فهذه حال الإنسان مع هذه الدنيا وإلا الوطن والمستقر والحيوان في الدار الآخرة {وإن الدار الآخرة لهي الحيوان } .

ولهذا لا ينبغي للعبد أن تشغله الدنيا عن ما خُلق لأجله وأُوجد لتحقيقه ، وهو لم يُخلق لهذه الدنيا ، وشأنه فيها كالغريب أو كعابر سبيل .

فالحديث مشتمل على وصية عظيمة من النبي عليه الصلاة والسلام في عدم الاغترار في الدنيا والدعوة إلى الزهد فيها وأن لا يغتر الإنسان في هذه الحياة بطول أمل أو ينشغل فيها عن القيام بصالح العمل وأن يتذكر أنه عنها راحل وأنه مرتحل إلى الدار الآخرة ، فالدنيا مدبرة والآخرة مقبلة ؛ فلا يشغله المُدبر عن المقبل ، والقرار في الدار الآخرة وليس في هذه الدار .

وفي هذا الحديث أيضاً لطف النبي عليه الصلاة والسلام في مقام التعليم والتربية وحسن تربيته عليه الصلاة والسلام وتوجيهه لأصحابه رضي الله عنهم .

وفيه أيضاً سرعة استجابة الصحابة رضي الله عنهم لوصايا النبي صلى الله عليه وسلم .

فالحديث مشتمل على فوائد عظيمة جداً .

يقول ابن عمر رضي الله عنهما " أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكي " : المنكب الكتف ، وأخذ بمنكي : أي وضع يده على منكبي ؛ وهذا نوعٌ من اللطف والمؤانسة وتحريك النفس لحسن الاستماع ؛

فلقية النبي عليه الصلاة والسلام وجهاً إلى وجهه وأراد أن يخاطبه عليه الصلاة والسلام بهذا الخطاب ؛ فرفع عليه الصلاة والسلام يده ووضعها على كتف ابن عمر ، ووضع اليد على الكتف بهذه الصيغة عند إرادة النصيحة فيه ملاطفة للمنصوح ومؤانسة له وإدخالاً للسرور على قلبه ؛ ولهذا ابن عمر رضي الله عنهما يذكر ذلك وأصبحت الوصية مقتزنة بهذه الصفة وهذا العمل الجميل الذي فعله النبي عليه الصلاة والسلام مع ابن عمر رضي الله عنهما .

وأما ما يفعله بعض الناس عندما يكون أخاه أمامه ولا يشعر به ؛ ثم إذا اقترب منه مسكه من الخلف على منكبه فهذا ليس من اللطف ؛ بل هذا ربما يدخل في الإنسان شيئاً من الخوف أو القلق أو الانزعاج ؛ فهي طريقة غير مناسبة .

والذي فعله النبي صلى الله عليه وسلم داخلٌ في باب الرفق واللطف والإحسان والمؤانسة .

ووضّع النبي صلى الله عليه وسلم يده على منكبه رضي الله عنهما للتبني والتذكير مع اللطف والإحسان ، يضع اليد على المنكب كأنه يقول انتبه . وهذا الصنيع فعله عليه الصلاة والسلام تأكيداً على الوصية واهتماماً بها .

قال "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " : ليكون شأنك في الدنيا بهذه المثابة كالغريب أو عابر السبيل ، اعتبر نفسك بهذه الصفة لا يأخذك طول الأمل ولا يشغلك التسويف ، ولا تؤخر عمل اليوم إلى الغد لأنك قد تؤخر عمل اليوم إلى الغد فلا تكون من أهل الغد ..

مثل أن يدخل عليك رمضان وتذكر أعمالاً جميلة وأبواباً من البر والخير ؛ فتقول لك نفسك الآن دخل هذا رمضان ؛ اجعل هذه الأعمال في رمضان القادم ؛ فما يدريك أن تكون من أهل رمضان القادم أو لا تكون .. هل تكون من أهل الجمعة القادمة أو لا تكون .. هل تكون من أهل غدٍ أو لا تكون {وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً} .

ولهذا ينبغي أن يكون حالُ المسلم في هذه الحياة الدنيا كالغريب أو عابر السبيل .

والغريب هو الذي يدخل البلد ليقوم فيه إقامة مؤقتة لبضعة أيام لمصلحة من المصالح أو حاجة من الحاجات ؛ يأتي مثلاً إلى المدينة بضعة أيام لحاجة أو مصلحة والصلاة في المسجد النبوي فهذا يسمى غريباً ؛ فهل يفكر الغريب في الوطن الذي هو ليس وطنه والأرض التي

ليست أرضه ؛ هل يفكر أن يشتري أرضاً أو يعمر بيتاً أو يؤسس مزرعةً أو غير ذلك ؟ لا يفكر ؛ وإنما تفكيره في حاجة مؤقتة ويرحل . وعابر السبيل هو أشد من الغريب ولا يفكر في الإقامة بالبلد وإنما يمر بالبلد مروراً ؛ فقال "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " أي اعتبر حالك بهذه الصفة وعلى هذه الحال ، والمراد أن لا يغتر الإنسان بالدنيا وأن لا تشغله عما خلق لأجله أو أوجد لتحقيقه ، وليس في الحديث نهْي عن قيام العبد بمصالحه الدنيوية وحاجاته من بناء بيت أو شراء مسكن أو إيجاد عمل أو مصلحة أو تجارة أو كسب رزق أو فلاحه أو غير ذلك ؛ وإنما مراد الحديث أن لا تشغل العبد الدنيا عن الآخرة ؛ فإذا قام بواجباته وبالحقوق التي كُلف بها وأوجبت عليه فلا حرج عليه في اشتغاله بمصالحه وحاجاته ؛

ولهذا كان في دعاء النبي عليه الصلاة والسلام " اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا " : أخذ أهل العلم من هذا الحديث أن اهتمام الإنسان بدنيته وتعلمه لمصالح دنيائه لا حرج عليه في ذلك لكن الحرج أن تكون الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم ؛ فهذا الذي فيه الحرج والإثم .

وهذا أيضاً مأخوذ من الحديث نفسه من قوله عليه الصلاة والسلام "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " : فمن المعلوم أن الغريب وعابر السبيل مصالحه لا يتخلى عنها ؛ فتجده يطلب ويسعى لتحقيق مصالحه وحاجاته من مسكن ومطعم وشراب .. ؛ لكن هذه المصالح لا تشغله عن وطنه الأساس وبلده الذي هو راجعٌ إليه ؛ وهكذا ينبغي أن يكون المسلم .

والحديث يفيد أن الإنسان في هذه الحياة الدنيا بمثابة المسافر والقرار في الدار الآخرة ، ولن تُحط رحال السفر إلا في إحدى دارين إما الجنة وإما النار .

قال " وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ... " : وهذا فيه من الفائدة سرعة استجابة الصحابة رضي الله عنهم لوصايا النبي عليه الصلاة والسلام وتأثرهم بمواعظه صلى الله عليه وسلم ؛ فهذا هو ابن عمر رضي الله عنهما قد تأثر بهذه الوصية وأخذ يوصي بموجبها ومقتضاها ؛ فكان يقول :

" إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح " : يعني اعتبر نفسك أنك تنتهي من هذه الحياة قبل أن تصبح ، قدّر ذلك .

" وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء " : فقدّر أنك لا تبلغ المساء ، وإذا عاش الإنسان حياته بهذه الصفة تصلح حياته ويستقيم حاله وتصلح أعماله وتزيد قرباته ولا ينشغل بهذه الدنيا ولا تلهيه .

ولهذا يقولون " الإنسان ابن يومه " وإذا عقل الإنسان هذا استفاد فائدة عظيمة ؛ أما اليوم الذي مضى فهو شيء انقضى وانتهى إما على خير فيحمد الله على ذلك ، وإما على غير ذلك فليستغفر الله ، لكن اليوم الذي مضى لا يعود ؛ فإن كان أمضاه في خير حمد الله وإن كان أمضاه في غير ذلك فليستغفر وليتب إلى الله .

واليوم الآتي - يوم غد أو بعد غد - لا يدري هل يدرك ذلك اليوم أو لا يدركه ، لا يدري هل يدرك يوم غدٍ أو لا يدركه ؛ فالإنسان ابن يومه .

وكثيراً ما يُشغل الإنسان عن يومه الذي ينبغي أن تتجه همته إليه إما إلى أيام ماضية فيدخل على قلبه همٌّ وحزنٌ وغمٌّ أو نحو ذلك ، أو أيام مستقبله وهو لا يدري هل يدركها أم لا !!

لكن إذا تفكر في يومه أنه ابن يومه فينظر في أعمال اليوم ، ويجاهد نفسه على تميمها وتكملها والإتيان بها على أحسن حال .

فقوله رضي الله عنه "إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء" مفادُه أن الإنسان ابن يومه ، وإذا وضعت رأسك على الفراش قدّر أنها الليلة الأخيرة لك في هذه الحياة ، وفي الدعاء المأثور " باسمك اللهم وضعت جنبي وبك أرفعه فإن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين " ؛ فأنت تقول إذا أويت إلى فراشك " فإن أمسكت نفسي فارحمها " فإذا من المتوقع أن نفس الإنسان تُمسك وتُقبض في هذا الفراش ، وكم من إنسان نام على فراشه بين أهله ولم يكن يشتكي من علة ولم يقم من فراشه ؛ ولهذا يُقدّر الإنسان ويستحضر هذا المعنى حتى تصلح حاله ، إذا قدّر هذا المعنى عندما ينام فإنه سينام بإذن الله على الفطرة ، على الإخلاص ، على الدعاء ، على حسن الصلة بالله تبارك وتعالى . بخلاف بعض الناس ينام وهو غافل عن هذا المعنى وهو في فراشه يُفكر في نفسه الآثام التي سيفعلها في الغد ! وفي الصباح ينفذ المخطط الذي دار في ذهنه في فراشه !!

بينما إذا نام الإنسان وهو لا ينتظر الصباح ويقول لعلّي لا أدرك الصباح وتكون هذه الليلة هي آخر ليلة لي في هذه الحياة فتقوى صلته بالله والتجأؤه إلى الله ورغبته ورهبه ودعائه... وغير ذلك ، فهذه وصية عظيمة ونافعة وفيها معالجة للأدواء التي تصيب القلوب والأمراض التي تعلق بالنفوس ، والاغترار بالدنيا وطول الأمل ؛ فأكثر ما يُفَوِّت على الإنسان الخير وأعمال البر طول الأمل ، وكم من شخص دخل قبره وقد سوّف لأعمال كثيرة مات ولم يقيم بها كل ما أراد أن يعمل عل من أعمال البر أجله بسوف لما قام بقلبه من طول الأمل

“،

ولهذا من لطيف الوصايا والمواعظ أن أحد السلف أراد أن يعظَ أحدَ المفرطين ؛ فأخذه إلى المقابر - قد قال عليه الصلاة والسلام "ألا فوزورها فإنها تذكركم الآخرة" فأخذه إلى أحد المقابر وقال له : لو كنت في هذا المكان ماذا تتمنى ؟ قال : أتمنى أن يعيدني الله مرةً ثانية إلى الحياة الدنيا لأعمل صالحاً غير الذي أعمل ؛ قال له : أنت الآن فيما تتمناه ، والفرصة أمامك الآن ، اعمل صالحاً قبل أن تُدفن وتتمنى ولا تفيدك الأمنية .

قال " وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك " : انتهز فرصة العافية والصحة والنشاط والقوة ، انتهز هذه الفرصة الثمينة للاستفادة من الخير ، إذا كان بصرك قوياً فرصة لك أن تنظر فيه العلم ، تنظر القرآن وتقرأ وتتفقه وتتعلم ؛ لأن الإنسان قد يكبر به العمر ويضعف بصره ويحتاج أن يقرأ ولا يستطيع لأن بصره لا يساعده على القراءة ، وتجد الكتب قريبة منه ، والمصحف قريباً منه ولا يستطيع أن يقرأ لأن بصره لا يساعده .

أيضاً إذا كان سمع الإنسان قوياً ففرصة أن يسمع به الذكر والخير والكلام الطيب والعلم النافع ، إذا كانت قوة الإنسان وصحته قوية ففرصة للصلاة والصيام والمشى في أعمال الخير والبر ومساعدة الناس المحتاجين " خذ من صحتك لمرضك " ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر " نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ " ؛ يعني كثير من الناس عنده صحة لكن لا يستفيد منها ، غير منتفع بها ، بل أحياناً يكون الإنسان ضعيف الصحة وأقوى من قوي

الصحة في أعمال البر ، وأحياناً يكون الإنسان فيه عيب في بدنه - إما أن يكون فاقداً لقدم أو فاقداً لإحدى يديه . لكنه يعمل عملاً لا يقوم به كثير من الأصحاء وكثير من الأقوياء .

وأذكر في هذا المسجد ، أفادني رجل . هذا الكلام قديم له ما يقرب من الثلاثين سنة - أفادني فائدة لا زلت أدعو له بظاهر الغيب عليها ، وهو لم يكلمني ولم أكلمه ، ولم يخاطبني ولم أخاطبه .. ؛ كان في هذا المسجد تُصلى صلاة التهجد في العشر الأواخر من رمضان ، تُصلى الخمس تسليمات بثلاثة أجزاء ونصف ، والتسليمة الأولى جزء كامل - في كل ركعة نصف جزء . فكان القيام طويلاً ويتعب الناس من طول القيام ، والتسليمة الثانية بجزء كامل ، والتسليمة الثالثة والرابعة والخامسة بنصف جزء في كل تسليمة ؛ فكان القيام يطول ، فكان مرةً صلّى أمامي ، وكنت بمرافقة الوالد والجد رحمة الله عليه ؛ فصلّى أمامي وجاء بعكازتين ، وإحدى رجليه وأظنها اليسرى مفقودة من الركبة ؛ فلما قاموا لصلاة التهجد قام وصلى الخمس التسليمات كاملة على قدم واحدة بدون عُكازتين ! وهذا بعيني رأيته !!

فكنت أنظر إليه وأعيد النظر ، والرجل أمامي طوال هذه الفترة وأنا تجول في ذهني أفكار وأنظر فيه وأتعجب !! ثم قلت في نفسي وأنا أنظر إليه وأنا صغير ؛ قلت : هذا الرجل ليس معوّق ، الإعاقة موجودة في كثيرة من الناس أبدانهم صحيحة ولا يشهدون الصلوات الخمس في المساجد ؛ فهؤلاء معوّقين ، أجسامهم قوية ، يداهم قويتان .. ؛ وينادى للصلاة ولا يأتون للصلاة ! هؤلاء المعوقين .

فأعطاني هذا الرجل بدون أن يتكلم درساً في فهم معنى الإعاقة ، ومن ذلكم الحين وهذا الدرس استفدته منه أن المعوّق ليس من فقد بعض أطرافه أو فقد سمعه أو شيء من حواسه ولكنه محافظ لطاعته لربه . المعوّق الذي عنده حواس وقوة ونشاط وقدرة ، وضائعة في الشر والعياذ بالله أو ضائعة في الفساد وفي إضاعة الواجبات وارتكاب المحرمات .

ووجدت كلاماً لأهل العلم في معنى الإعاقة في ضوء قوله تعالى { قد يعلم الله المعوقين منكم } وابن القيم له رحمة الله تعالى كلام جميل في العوائق في كتابه الفوائد ، ولغيره من أهل العلم ..

فالشاهد أن صحة الإنسان وما أعطاه الله من القوة في جسمه ، في بدنه ، في حواسه ؛ ينبغي أن لا يضيعها وينبغي أن يصرفها في الخير وفي الطاعة ، والواجبات ، وفي البعد عن الحرام والآثام .

قال " ومن حياتك إلى موتك " : أي انتهز فرصة وجودك في الحياة لتعمل الأعمال الصالحة المقربة إلى الله سبحانه وتعالى

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[أولاً : في أخذ رسول الله ﷺ بمنكب عبد الله بن عمر تنبيه وحث له على وعي ما يُلقى عليه في هذه الحال، وإخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بذلك يدل على ضبطه وإتقانه ما سمعه من رسول الله ﷺ ؛ لأن فيه تذكُّر الحالة التي حصلت عند سماعه هذا الحديث من رسول الله ﷺ .

ثانياً : قوله: “ كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ” ، الغريب هو المقيم في غير بلده لقضاء حاجة يستعدُّ لمغادرة ذلك البلد متى تمكَّن من ذلك، وعابر السبيل هو المسافر الذي يمرُّ بالبلاد مروراً دون إقامة بها حتى ينتهي من سفره، ودار الغربة وعبور السبيل في هذا الحديث هي الدنيا، والسير فيها للآخرة، وذلك إثمًا يكون بتذكُّر الموت وقصر الأمل والاستعداد فيها للآخرة بالأعمال الصالحة، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ وقد ذكر البخاري رحمه الله في صحيحه عن علي بن أبي طالب أنه قال : “ ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكلِّ واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإنَّ اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل ” ، وقد أوضح النَّبِيُّ ﷺ مثل هذه الحياة الدنيا وانتهائها، وأنها ليست بدار قرار بقوله ﷺ: “ ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها ” رواه الترمذي وغيره، وقال: “ حديث حسن صحيح ” .

الشرح..

قوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"؛ عرفنا معنى الغريب ومعنى عابر السبيل ؛ وهذا يُستفاد منه أن المطلوب من العبد أن يستعد للدار الآخرة وأن لا يغتر بالحياة الدنيا - هذا خلاصة المطلوب في هذا الحديث - ، وذلك إنما يكون بتذكر الموت وقصر الأمل والاستعداد للدار الآخرة بالأعمال الصالحة ؛ وهذا زبدة المطلوب في هذا الحديث ؛ كما قال الله تبارك وتعالى {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى} .

وقد أورد الإمام البخاري أثرًا عظيمًا عن علي بن أبي طالب أنه قال : “ ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكلٍ منهما بَنون يعني أن من الناس أبناء الدنيا وليسوا من أبناء الآخرة ومن الناس من هم من أبناء الآخرة وليسوا من أبناء الدنيا لم تلهم ولم تشغلهم قال " ولكلٍ واحدة منهما بَنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإنَّ اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل “

[ثالثاً : قوله: “ وكان ابن عمر رضي الله تعالى عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء “ ، فيه مبادرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تنفيذ وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيه فضل عبد الله بن عمر ؛ فإنه مع تنفيذه ما وصَّاه به رسول الله صلى الله عليه وسلم يرشد غيره إلى تنفيذ ذلك، والمعنى أنَّ المسلم يكون مترقباً الموت، فهو يستعدُّ له بالعمل الصالح دون كسل أو تأخير، ويعمل الصالحات في نهاره كأنَّه لا يُدرك المساء، وفي ليله كأنَّه لا يدرك الصباح، وفي ترجمة منصور بن زاذان في تهذيب الكمال: قال هُشيم بن بشير الواسطي: “ لو قيل لمنصور بن زاذان: إنَّ ملك الموت على الباب ما كان عنده زيادة في العمل “

الشرح..

قول ابن عمر " إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء " كان يوصي بذلك وهذه الوصية مه تدل على أمرين..

• أولاً تدل على سرعة استجابته وتأثره بما أوصاه به النبي صلى الله عليه وسلم

• تدل أيضاً على عنايته بوصية الناس بهذا الخير

ومن الأمثلة الجميلة لحفظ السلف للوقت وعنايتهم له ما جاء في ترجمة منصور بن زاذان في تهذيب الكمال: قال هُشيم بن بشير الواسطي: “ لو قيل لمنصور بن زاذان: إِنَّ مَلَكَ الموت على الباب ما كان عنده زيادة في العمل “ لأن حياته كلها ماشية على حفظ الوقت بالأعمال الصالحة

رابعاً : قوله: “ وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك “ ، المعنى أَنَّ المسلم يُبادر إلى الأعمال الصالحة، حيث يكون متمكِّناً منها، وذلك في حال صحته قبل أن يأتيه ما يعوقه من ذلك كالمرض والكبر، وأن يعمر حياته بالأعمال الصالحة قبل أن يفاجئه الموت، فينتقل من دار العمل إلى دار الجزاء

الشرح..

كما جاء نضير هذا عن النبي ﷺ " اغتتموا خمساً قبل خمس " ؛ فإغتنام الحياة قبل الموت، والصحة قبل المرض ، والشباب قبل الهرم .. ؛ كل ذلك مما أوصى به النبي الكريم ﷺ .

[خامساً : مِمَّا يُستفاد من الحديث:

أولاً : الحثُّ على استشعار الغربة في هذه الحياة؛ ليستعدَّ فيها بالأعمال الصالحة.

الشرح..

استشعار الغربة في هذه الحياة هو الذي يثمر الاستعداد بالأعمال الصالحة ؛ ولهذا قال "كن في الدنيا كأنك غريب" ؛ فإذا استشعر الغربة في هذا الحياة وأنها ليست وطناً ولا مستقراً فإن ذلك يثمر الاستعداد وهو المراد ؛ فالمراد هو الاستعداد ليوم المعاد ، {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى} .

ثانياً : فعلُ المعلم ما يلفت نظر المتعلِّم إلى وعي ما يلقي عليه؛ لقول عبد الله بن عمر: “ أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي “ .

الشرح..

هذا داخل في باب حسن التعليم أن يفعل المعلم ما يلفت نظر المتعلم ؛ بحيث تبقى المعلومة ثابتة ومستقرة في الذهن .

ثالثاً : مبادرة الصحابة إلى تنفيذ وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

رابعاً : فضل عبد الله بن عمر بأخذه بوصية النبي صلى الله عليه وسلم وحث غيره عليها .

الشرح..

ابن عمر رضي الله عنهما جمع بين أمرين : فعل الوصية والدلالة عليها ، وهكذا ينبغي أن يكون المسلم فيما يسمعه من الخير أن يبادر هو بنفسه بالقيام به ، وأن يفيد به الآخرين .

خامساً : الحثُّ على المبادرة إلى الأعمال الصالحة دون كسل أو تأخير [.

الشرح..

إذا أصبح الإنسان غير منتظرٍ المساء ، وأمسى غير منتظرٍ الصباح فإن الكسل يذهب عنه ولا يفكر في تأخير الأعمال ، أما الذي يكسل ويؤخر العمل هو الذي يُصاب بطول الأمل

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

* * *